المحاضرة 7:

التأثيرات المغربية الاندلسية على العمارة في العهد الموحدي (1121 م-1269 م)

يقترن التواجد الموحدي في بلاد الاندلس باشبيلية التي تقع في جنوب اسبانيا و بالرغم من انها كانت حصنا اسلاميا منذ عهد موسى بن نصير الا انها فقدت مكانتها بتحول مقر الحكم الى مدينة قرطبة التي اصبحت عاصمة للخلافة الاموية بالأندلس.

و مع ذلك كانت من أكبر المراكز الاسلامية حيث توافد عليها الناس لاعتناق الاسلام لسياسة التسامح الديني و الاجتماعي التي انتهجها الحكام المسلمون.

بايع اهل اشبيلية الموحدون سنة 551ه- 1156م بقيادة عبد المؤمن بن علي الذي اختارها عاصمة له و من بعده ابنه أبو يعقوب يوسف الذي ولد في قرطبة و نشأ في اشبيلية التي فضلها على مراكش عاصمة الموحدين ببلاد المغرب.فقام باعمار عاصمته بمختلف العمائر المتسمة بالضخامة و الثراء الفني و الزخرفي.الذي اخذوه عن اهل الاندلس.كما قام ابو العلاء ادريس بن ابي يوسف يعقوب بتجميل اشبيلية و تجديد تحصيناتها و بنى سورا يتقدم التحصينات و احاطها بخندق . و اهم بناء على عهدأبي العلاءايضا برج الذهب الذي لا يزال قائما الى يومنا هذا و هو برج ضخم بني عام 618ه-1221م، يتكون البرج من طابقين ذي 12 ضلعا يدخل اليه عبر فتحة الباب في الجهة الشمالية الشرقية منه.

من اهم عمائر اشبيلية ايضا مسجد ين الاول هو مسجد بن عدبس نسبة لمؤسسه

و الثاني هو المسجد الجامع بالقصبة لمؤسسه ابو يعقوب يوسف و الذي تقوم عليه اليوم كاتدرائية اشبيلية. و بالرغم مما تعرضت له اشبيلية من طمس للهوية الاسلامية و تحويل العديد من مبانيها غير ما كانت عليه، الا ان البصمة الاسلامية بعناصرها المعمارية و الزخرفية و الفنية لا تزال صارخة بوجودها.

و نظرا للمكانة التجارية التي كانت تحتلها اشبيلة فقد ظهرت بها عمائرأخرى تؤدي هذا الهدف كالفنادق

من أشهر عمائر اشبيلية في العهد الموحدي:

مسجد القصبة باشبيلية: ضاق المسجد الاول بن عدبس بالمصلين فقام ابو يوسف يعقوب الموحدي سنة 564ه-1168م ببناء مسجد جديد على انقاضه و انتهى منه 577ه-1181م

كان للمسجد ساباط على يسار المحراب يصل القصر بالجامع و له باب على يمين المحراب كما كانت توجد حجرة للمنبر و مقصورة خشبية جميلة.

في منتصف القرن الثاني عشر بدأ طراز جديد ينمو بتشجيع الحكام الموحدين حتى بلغ قمته خلال القرن الرابع عشر في غرناطة حصن الاسلام الأخير بإسبانيا حيث ساهم الموحدون في تأصيل نوع من التوحيد بين عناصر الفن الاسلامي في المغرب و الاندلس.

- استطاع الموحدون بفضل ما أبدعوه من روائع تبوأ المقام السامي في تاريخ الفن الإسلامي، لا سيما في عهد يوسف الذي عاش في إشبيلية حيث زينها بأروع البنايات والمؤسسات العمومية ثم جاء ولده يعقوب المنصور، فكان أبدع بناء في تاريخ المغرب الفني وقد تجلت هذه البدائع خاصة في إشبيلية والرباط ومراكش ومناراتها (ألخيرالدا وحسان والكتبية) وأصبحت مراكش ببناياتها وقصورها وحدائقها أشبه ببغداد في الشرق كما شبهت مدينة فاس بدمشق في روائعها الفنية وطبيعتها الخلابة.

و الظاهر أن التأثير المتبادل بين المغرب والأندلس يشكل إحدى أهم محاور تاريخ الغرب الاسلامي في العصر الوسيط. فالموحدون أصحاب مدرسة في فن العمارة وفي الزخرفة من أهم تعاليمها التبسيط بقدر الامكان من التكوينات الزخرفية وتجريد "التوريقات" من عناصر حية وطبعها بطابع الورع الذي يعكس اتجاههم الإسلامي.

ويرى الباحث تيراس أن الموحدين قد غيروا مسار الفن الاسباني المغربي حيث أكثروا من تشييد البنايات الضخمة ورفع الهياكل الخالدة وكان لهم ذوق خاص في

البناء حيث اهتموا بالإنشاء والتعمير سواء في المغرب أو الأندلس، وحظيت مراكش والرباط وغيرها من المدن المغربية بكثير من المنشآت الموحدية وقد أولى الخليفة عبد المومن (487 هـ- 558 هـ 1094 م - 1163م) اهتمامه بالبناء والتعمير ومن ذلك انشاءه لمدينة الفتح وبجانب ذلك انشاؤه لكثير من المساجد والقصور في أنحاء مختلفة من البلاد وقد سار الخلفاء الموحدون على سياسة المرابطين حيث استعانوا بخبرة اهل الأندلس كثيرا في أعمال البناء.

وكان المنصور الموحدي يستخدم أسرى الأندلس في أعمال البناء بعاصمته وأثمرت الخبرة الأندلسية ثمارها بأرض المغرب الأقصى، وظهرت تلك المنشآت والأبنية كجامع القرويين ثم جامع الكُتبية وجامع القصبة بمراكش وجامع حسان برباط الفتح وقصبتها.

يقدم مخطط مسجد الكتبية بدوره تطورا للشكل المطبق في قرطبة والمكرر في مساجد المرابطين وتغطي الأجنحة كما هو الأمر في قرطبة وتلمسان بالجملون والقرميد وهي متجهة نحو العمق كما ان استخدام الدك الذي يبدو استعمالا اندلسيا صرفا قد استعمل في مراكش حيث نرى الجدار والدك و الأبراج المدعمة في "تنملل" وفي سور الرباط الضخم ، غير أن ما يؤكد امتياز هذه المنشآت الدفاعية في الفن الاسلامي هو الأبواب الأبدية "كباب الرواح" باب "الوداية"، وباب القصبة الذي يطلق عليه باب "كناوة" في مراكش، ولقد مكنت الحجارة المرصوفة بدقة في هذا الجزء من القلعة من نقش زخرفة عريضة تحيط القوس الحدوي نصف الدائري أو المكسور.

والجدير ذكره أنه بفضل الموحدين تجلى القرن السادس الهجري لبعض علماء الآثار كعصر بلغ فيه الفن مرحلته الأوج في القسم الغربي من العالم الاسلامي كما أن التأثير الأندلسي بدا واضحا حيث أن عددا كبيرا من رؤوس الأساطين في الكُتبية هو من أصل أندلسي فالأعمدة الأربعة التي تساند قوس المحراب من مخلفات الفن الأموي كما توجد أيضا في المسجد الموحدي بقصبة مراكش أعمدة أموية.

- بلغت الزخرفة أوج قمتها متحدة مع الفن الأندلسي فالزخرفة الجصية تسود الأبنية الآجرية في ترابط هندسي قوي، وتكرر شكل العقد الحدوي في عقيدات صغيرة مسننة ونظمت المسطحات بإطارات هندسية دون ملئها بأي تفصيلات. وهي تجعل في بناء الآجر في العقود المدببة مظهرا جانبيا يشبه ريشة الخوذة وبه شرشفة دقيقة كالمنشار والقبوات غنية بالمقرنصات وحشيت الوصلات بالأرابيسك المسطح. كما أن ورقة الأكانتس المزدوجة تشكل العنصر الرئيس للزخرفة النباتية الموحدية حيث تختلف عن الزخرفة المرابطية، فهذه الأخيرة أقل تنوعا ومقتصرة على أشكال أقل عددا هي كجميع أنواع الزخرفة الخاصة بنفس العهد، كثيفة جدا وذات مقياس مصغر حتى تكاد تصبح مختلطة المعالم
- أما الزخرفة النباتية الموحدية فهي أكثر بساطة وأكثر عرضا فالزخرفة التي تظهر الزهد الموحدي تتضمن مساحات فارغة، حتى تكاد توحي أحيانا بشيء من الفقر. وبذلك فقد شملت حركة البناء والتعمير تنوعا كبيرا فحسب عبد الواحد المراكشي لم ير ما يشبه الأندلس في حسن المباني والتصنيع إلا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المومن. ومن أهم مساجدها الكُتبية الذي أشرف على بناءها المهندس الأندلسي "جبير". ففي منارة الكتبية توجد طبقات متوالية من الغرف المقوسة السقف تصل بينها درج مركزية لا مرقاة لها ويلاحظ وجود نفس التصميم في كل من (الخيرالدة) و(حسان) ، فالجدار مطلية بجص أصفر كلس ضارب إلى اللون الرمادي ، وما زالت هذه الطريقة جاري العمل بها في مراكش وتنعكس على صفحته تموجات وضاءة تتسلل داخل المنارة من النوافذ المفتوحة في عرض الحائط وتؤدي الدرج آخر المطاف إلى الجزء العلوي من المئذنة المطلة على المدينة وتستمد النقوش مواضيعها من أشكال الزهر والسعف الجامعة بين القوة والرقة، أما في الطبقة الأرضية فإن القبة مخروطة الشكل تبعا للأسلوب

الإسلامي الإسبانـي، بينما تحتوي القاعـة السادسـة والأخيرة على أغنـى قبة ثمانية الاضـلاع ومقرنصة تتكون منها مجموعـة هندسية رائعة.